

الطب النفسي الإيقاعحيوى التطورى (153)

منذ ربع قرن:

بعض تاريخ هذا الفكر (2)

Towards a Better Dialogue between Psychiatric

(1) Clinical Practice and Neuroscience Research Information

نحو حوار أفضل بين الممارسة الإكلينيكية

ومعلومات أبحاث العلمعصبى (الجزء الثانى)



<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD290117.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوى

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2017/01/29

السنة العاشرة - العدد: 3439

مقدمة:

بدأت أمس فى إعادة نشر أول افتتاحية منتقاة من الافتتاحيات التى كتبتها وسبق نشرها فى المجلة المصرية للطب النفسى، والتى لها علاقة مباشرة بالطب النفسي الإيقاعحيوى التطورى وبالمنهج الذى اتبعه وأنتمى إليه فى قراءتى الطبيعة البشرية فى الصحة والمرض استجابة لأمر ربي الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

وقد رأيت فى مقدمة نشرة أمس أن أمنع نفسى عن التعقيب على المتن الأصلي مكتفياً بالتعقيب فى الهوامش أو بين قوسين، إلا أننى بعد أن انتهيت من ترجمة بقية الافتتاحية الأصلية اكتشفت أن بها من التفاصيل الأكاديمية والمصطلحات الجديدة (بالعربية) ما قد يبعد القارئ عن جوهر الفكرة، وأنا كل قصدى هو أن يدعم القديم الجديد لتوضيح أبعاد الطب النفسي الإيقاعحيوى التطورى، ثم إن كثيراً من هذه المعلومات المدعمة بالمراجع التى وردت فى الأصل قد أصبحت قديمة نسبياً، وبعضها نسخ بأبحاث أحدث، فرأيت اليوم بالنسبة لهذه التفاصيل ما يلى:

أولاً: أن أتركها للقارئ كما هى فى الأصل الانجليزية بمراجعتها.

ثانياً: أن أنقلها إلى الهامش فى الترجمة العربية إذا لزم الأمر.

ثالثاً: ألا أتردد فى إضافة تعقيبات أكثر تفصيلاً لعلها تساعد فى الربط بين تاريخ أعمالى وبين ما استحدثت فى فكرى وخبرتى وتنظيرى وفروضى فيما هو الطب النفسي الإيقاعحيوى التطورى، حتى لو كان قد سبق نشرها فى سياق آخر.

وقد اضطررت إلى إعادة صياغة بعض الفقرات بالعربية غير ملتزم بالترجمة الحرفية، وذلك حتى يمكن توصيل الرسالة بلغتى الفصحى لمن لم يعتد القراءة بها تاركاً الأصل بالانجليزية دون مساس لمن شاء أن يرجع إليه ليصل منه مباشرة إلى ما يستطيع.

وبعد

انتهت نشرة أمس بتساؤلات حول الهوية القائمة بين الممارسة الإكلينيكية والمنظومات المعملية، وعن ضرورة وجدوى تطبيق المعلومات المعملية لاختبارها إمبيريقياً فى واقع الممارسة الإكلينيكية، وعن تناسب ما يجرى مع القدرة المالية لأغلب المرضى فى الدول النامية حين تضاف إلى أثمان الأدوية تكلفة هذه الأبحاث المعملية الباهظة، وعن علاقة كل ذلك بتقييم النتائج إكلينيكية مع الحذر من استيراد قيم نصف بها ما يسمى "نوعية الحياة" متجاوزين نخاع ثقافتنا، وعن الحاجة إلى فروض

إن أخلص العلمعصبى يؤكد على الزيادة أو النقص كميًا من هذه المادة البيوكيميائية أو تلك، وعن موقع ذلك تشريحياً، أى على "الموضوعة"، وموقع تواجد المتاح من المادة الفاعلة (تحديداً فى الجهاز العصبى) وخاصة فى المشتبكات العصبية المختلفة، وكذلك على مستوى العقار فى البلازما، وأيضاً يجرى تقييم الأمراض تقبيماً كميًا

موازية نابعة من الممارسة الإكلينيكية لدعم أو نقد أو تصحيح المعلومات العلمصية التجريبية والمعلمية.

وأواصل اليوم نشر ما تيسر من نفس الافتتاحية بالإنجليزية، مع إعادة التنظيم كما ورد في الاستهلال للصورة العربية:

باقي الافتتاحية:

.....

المتن

...“حتى يمكن تحقيق حوار أفضل بين الممارسة الإكلينيكية والمعلومات العلمصية من الضروري أن نعيد النظر في أساسيات ابتعدت عن بؤرة اهتمامنا، أورد أهمها فيما يلي:

أولاً: **المَوْضَعَة في مقابل المنظومة** (2) وما إلى ذلك من مصطلحات)

إن أغلب العلمصية يؤكد على الزيادة أو النقص كميًا من هذه المادة البيوكيميائية أو تلك، وعن موقع ذلك تشريحياً، أى على “الموضعة”، وموقع تواجد المتاح من المادة الفاعلة (تحديداً في الجهاز العصبي) وخاصة في المشتبكات العصبية المختلفة، وكذلك على مستوى العقار في البلازما، وأيضاً يجرى تقييم الأعراض تقييماً كمياً، وكذا تُفحص نتائج الاستقصاءات التقنية من نفس المنطلق، وقد يكون هذا الموقف هو المسئول - على الأقل جزئياً- عن ما نتعامل به مع المرضى من اختزالية، لواحدية المريض إلى أجزاء وكيماويات وأعراض.

إن فن اللأم يستعمل، أو ينبغي أن يستعمل، أبجدية أخرى مثل “المنظومة” و“الإنتاجية” و“نوعية الحياة” ونوعية الحياة(3)

التعقيب: (من افتتاحية أسبق: 1981)

اكتشفت أنني كتبت افتتاحية قبل هذه الافتتاحية بثلاثة عشر عاماً: سنة 1981 أنه فيها إلى الحاجة إلى أبجدية جديدة نتعرف بها على مرضانا وكيف أننا نتعامل معهم باستعمال أبجدية ساكنة ومعطلة فوجدت أن التعقيب المناسب هنا أن أنشر من هذه الافتتاحية مقتطفاً هذا نصه.

الافتتاحية بعنوان: **المنظومات المخية ووظائف المخ: الحاجة إلى مراجعة تطوير معاني الكلمات والمفاهيم،**

Brain Organization and Brain Function (A need for semantic and conceptual revision) Egypt. J. Psychiat. (1981) 2 : 151-152

وقد أنهيتها لإثارة التحدى والمناقشة كالتالى:

(1) **المَوْضَعَة (تحديد موضع) في مقابل المنظومة (الكلية المشمّلة Localization versus**

Organization .

(2) **المدى في مقابل التخصص Extent versus Specification**

(3) **كيمياء المشتبكات العصبية في مقابل التنشيط البيولوجى الشامل للتنظيمات حتى داخل**

الخلية Synaptic Chemistry versus Biotical Activity including Intracellular

Organization

(4) **الترتيب الهريراركى في مقابل التنظيمات المشتبكة المستقلة Hierarchical**

Organization versus Independent synaptic Organization

(5) **التنظيم المكاني في مقابل التنظيم الزماني Spacial versus Temporal**

Organization

وقد تعجبت - مرة أخرى - من أن هذه المشاكل المبدئية كانت تشغلنى بهذا الإلحاح منذ البداية، وقبل الافتتاحية الحالية بأكثر من عشر سنوات، كما اطمأنت إلى أنها جميعاً تسير فى نفس الاتجاه

قلته إنه “إذا كان العطار لا يطلع ما أفسد الدهر، فإن الدهر هو الأقدح أن يطلع ما أفسد الدهر” والعطار العديث هو العقاقير وحدها، والدهر العديث يشمل التعرف على ماهية مسيرة الإنسان ومواكبها، وآليات تواصلها مع حولها من الطبيعة والبشر ودوائر الوعي الممتدة إلى الغيب إليه، بما يسمع بتصحيح المسار

فى حين أن العلم عصبي يعطينا معلومات ذات مصداقية وثبات (معلمى) فى معظم الأحيان، فإن الممارسة الإكلينيكية ما زالت تعتمد على فرض عاملة نكّم عليهما من خلال العائد النفعى الواقعى (للمريض ومحيطه)

علينا أن نتذكر أن التحليل النفسى (بكل تاريخه) ما زال حتى الآن فرضاً لا يرتقى إلى مرتبة النظرية

وهو الأقرب إلى ما استحدث مؤخراً في ما سمي بالطب النفسي الإيقاعحيوى التطورى.

المتن:

ثانياً: البعد الطولى فى مقابل البعد العرضى:

يولى العلمعصبى اهتماماً أقصى على ما يمكن رصده الآن من تغيرات كيميائية أو تشريحية أو فسيولوجية، فى حين تركز الممارسة الإكلينيكية على فروض عاملة قابلة للاختبار والتقييم بمدى عطاء نتائجها على مدى طولى باعتبار أن بعد "الزمن" هو الأساس المحورى فى كل من "السببية" و"العلاج" جميعاً، وهذا المنطلق من بعد الزمن ليس خطياً، ولكنه يشمل كلا من الإيقاعحيوى والتوليف التنظيمى لكل من الحياة والمخ.

التعقيب:

امتد هذا البعد الطولى بعد تطور فكرى التطورى الإيقاعحيوى ليبدأ من بداية الحياة، حتى بداية الإنسان، وأيضاً من تاريخ بداية الفرد، حتى بداية اللحظة، وانطلاقاً من هذه البدايات الدائمة النابضة الخالقة، يتجدد الأمل باستمرار، هذا المنطق هو نافذة للتفاوض بقدر ما هو حافز للعمل والمثابرة، وفى مثل ذلك قلت إنه "إذا كان العطار لا يصلح ما أفسد الدهر، فإن الدهر هو الاقتر أن يصلح ما أفسد الدهر" والعطار الحديث هو العقاقير وحدها، والدهر الحديث يشمل التعرف على ماهية مسيرة الإنسان ومواكبتها، وآليات تواصلها مع حولها من الطبيعة والبشر ودوائر الوعى الممتدة إلى الغيب إليه، بما يسمح بتصحيح المسار، كما تؤكد كثير من ذلك فى المقولة العلمية التى أصبحت مبدأ ثابتاً للتعامل مع المخ وهو أن المخ يعيد بناء نفسه، وكل ما علينا هو أن نتعرف على كيف يفعل ذلك ونعينه بكل العلم، والفن، والمواكبة، والمسئولية، والمشاركة، ليواصل ذلك حتى يسترجع طبيعته كما خلقها خالقها.

المتن:

ثالثاً: الحقائق الجاهزة والمعلومات المغلقة فى مقابل النظريات والفروض

فى حين أن العلم عصبى يعطينا معلومات ذات مصداقية وثبات (معملى) فى معظم الأحيان، فإن الممارسة الإكلينيكية ما زالت تعتمد على فروض عاملة تحكم عليها من خلال العائد النفعى الواقعى (للمريض ومحيطه)، وعلينا أن نتذكر أن التحليل النفسى (بكل تاريخه) ما زال حتى الآن فرضاً لا يرتقى إلى مرتبة النظرية، كذلك فإن "طريقة عمل كل العقاقير" ما زالت مهما كثرت العقاقير أو أفادت فى مرحلة الفروض، وحالياً فإن ثمة محاولات للتأليف بين معلومات العلمعصبى وبين الفروض القائمة، الأمر الذى قد يتيح الفرصة لتخليق فروض جديدة أكثر صلاحية لتحقيق أهداف صالحة ومعقولة للممارسة الطبية.

التعقيب:

خلال كل هذه السنوات تواصل اختبار الفروض البادئة الواحد تلو الآخر: أورد عناوين بعضها فيما يلى:

أولاً: فرض "واحدية المرض النفسى" "بعد استبعاد الأمراض الناتجة عن تألف تشريحي، على اعتبار أن الفصام هو المرض الأم، والأخطر، وأن كل الأمراض هى حيل دفاعية للحيلولة دون تماديه على مسار التفكيك فالتفسيخ فالتناثر فضمور عدم الاستعمال (الأعراض السلبية)،

ثانياً: تفرغ من هذا الفرض فروض موازية تجعل حياة التكيف العادية من أنجح الدفاعات أيضاً ضد هذا المآل ثم تجعل الإبداع هو الدفاع الأروع والأقدر على إعلان قدرة المخ على إعادة التشكيل ليس فقط للتغلب على المرض أو الوقاية منه (من خلال سلامة توظيف الإيقاعحيوى) وإنما أيضاً فى احتواء التفكيك لإعادة التشكيل فى إبداع فائق يسهم فى دفع مسيرة الفرد فالجماعة فالنوع إلى

فرض "واحدية المرض النفسى" (بعد استبعاد الأمراض الناتجة عن تألف تشريحي)، على اعتبار أن الفصام هو المرض الأم، والأخطر، وأن كل الأمراض هى حيل دفاعية للحيلولة دون تماديه على مسار التفكيك فالتفسيخ فالتناثر فضمور عدم الاستعمال (الأعراض السلبية).

تفرغ من هذا الفرض فروض موازية تجعل حياة التكيف العادية من أنجح الدفاعات أيضاً ضد هذا المآل ثم تجعل الإبداع هو الدفاع الأروع والأقدر على إعلان قدرة المخ على إعادة التشكيل ليس فقط للتغلب على المرض أو الوقاية منه

تواصل النمو والتطور والحضارة والإيمان.

ثالثاً: تواصلت الفروض لتفسير عمل ما يسمى الآن جلسات تنظيم إيقاع المخ) وهو ما كان يسمى بالصدمة الكهربائية) حيث بين هذا الفرض الأخير أن هذا العلاج - في الوقت المناسب بالاعداد المناسب - هو بمثابة إعادة تشغيل المخ للسماح للمخ الذي تهيأ للقيادة والتكامل بالقيام بدور المايسترو الأقدَر، بديلاً عن الشواش الناتج عن استقلالية واقتحام المخ الناشز عن اللحن الأساسي.

رابعاً: تواصلت الفروض بعد ذلك في محاولة أن تقرأ طريقة عمل العقاقير بشكل آخر غير مجرد رصد زيادة أو نقص هذا الموصل أو ذلك في المشتبكات العصبية، وإنما بما يترتب على هذه الزيادة أو النقص من إعادة تنظيم كامل لمستويات الوعي ليحقق نفس الفكرة وهي تسليم القيادة بعد الإعداد المناسب وفي الوقت المناسب - للمستوى الأقدَر على القيام بدور المايسترو، وبذلك استعادة الطبيعة البشرية لفطرتها كما خلقها خالقها لتكمل المشوار إلى الإبداع والإيمان مصحوبة بمن يسهم في المواجهة والمشاركة والمسئولية.

وبعد

أما ما ورد بعد ذلك في هذه الافتتاحية فقد أعود إليه غداً، وقد اكتفى بهاتين العينيتين، سنة 1981 وسنة 1996 لننتقل إلى المهمة الأصلية ونواصل تقديم ما تيسر من معالم هذا الطينفسى الإيقاعى التطورى، في محاولة الإمام بما تبقى عن المرض الأم الفصام الذى أعطناه عنواناً دالاً هو "مغارة الضياع وعود الإبداع"
عذراً
ولكن هذا هو

[1] - Egypt. J. Psychiat. (1994) 17: 133-136

- [2] لن أكتب المصطلح بالإنجليزية غالباً لا في المتن ولا في الهامش مكتفياً بنشر كل المتن بالإنجليزية بعد الترجمة إلى العربية.

- [3] قمت بنقد استيراد تفاصيل قيم ما يسمى "توعية الحياة Quality of life" ورفضت استيراد مفرداتها احتراماً للاختلافات الثقافية وتمييزاً لهويتنا انظر مثلاً نشرة: 2015-4-13 "ثقافتنا: وتفعيل إرادة الحياة" حركية التفاعل بين "الامتلاء" و"الامتداد" ونشرة: 2015-4-19 "ملاحظات شخصية من واقع الممارسة والثقافة"

*** **

مؤسسة علم النفس العربى

Arab Foundation Of Psychological Sciences

<http://arabpsynet.com/>

<http://www.arabpsyfound.com/>

الدوريات والاصدارات و المعاجم

مجلات / دوريات

"نفسانيات" - المجلة العربية لعلم النفس وطب النفس

<http://www.arabpsynet.com/apn.journal/index-apn.htm>

http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=24&controller=category&id_lang=3